من بلاغة الداعي الناجح مراعاة مقام المخاطبين
" الحديث الشريف أنموذجًا"

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس
(مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)
المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

إعداد الأستاذ الدكتور
البدري فؤاد عبد الغني عبد الرازق
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بجرجا، جامعة الأزهر

من بلاغة الداعي الناجح مراعاة مقام المخاطبين " الحديث الشريف أنموذجًا"

البدري فؤاد عبد الغني عبد الرازق
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية ، بجرجا ، جامعة الأزهر، مصر .
البريد الالكتروني: Elbadryfouad.2040@azhar.edu.eg

الملخص:
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانًا، وأفضلهم بيانًا، وأعذبهم منطقًا، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.
فهذا البحث الموسوم بـ" من بلاغة الداعي الناجح مراعاة مقام المخاطبين" الحديث النبوي أنموذجا" تدور فكرته حول المقومات البلاغية التي يمتلكها الداعي الناجح في رسالته الدعوية التي يسلكها مع الكبير والصغير والغني والفقير والعالم والجاهل...وجميعها تتركز في محور مراعاة حال المخاطبين والمقام الذي يتحدث فيه الداعي وكيفية التعامل مع هؤلاء جميعًا.
وقد قسمته مبحثين:
المبحث الأول: عناصر بلاغة الداعي.
المبحث الآخر: دراسة تطبيقية من الحديث النبوي الشريف.
وهناك حيثيات كثيرة للمخاطبين ينبغي على الداعي أن يتنبه لها جيدًا ويفتي بما يناسب حيثية المخاطب. ولابُدّ للداعي أن يتدرج في الحوار مع المخاطب حتى يستل الإجابة من المخاطب نفسه وذلك أوقع في النفس. كما ثبت من خلال الدراسة أن رسول الله – ﷺ–يعرف أصحابه معرفة دقيقة ولذلك كان يجيبهم على حسب أحوالهم وهذا من بلاغته –ﷺ– وفطنته.

الكلمات المفتاحية: بلاغة ، الداعي ، مقام ، مخاطب ، أنموذج .

The successful and Fluent Caller should take into account the situation of Modern and Honorable Addressees as a model"

ALBadri Fouad Abd Al-Ghani Abd Al- Razek
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Gerga, Al-Azhar University, Egypt.
Email: Elbadryfouad.2040@azhar.edu.eg

Abstract:
Praise the Lord, Peace Be Upon the most fluent Arabic tongue, the best rhetoric, and the most logic by the prophet Mohammed and his family, companions, and those who followed his approach to the Resurrection.
This research is called" One of the rhetoric aspects of the successful caller to take into account the situation of addressees" that is a prophetic Hadith as a model ". His idea revolves around the rhetorical elements that a successful caller possesses in his propaganda message with the old, young, rich, poor, educated, and ignorant.
They are all focused on taking into account the situation of the addressees, the place where the addressee speaks, and how to deal with them all.
It is divided by the researcher into sections, the first section: elements of the addressee's rhetoric. Another section: An applied study of the Holy Prophetic Hadith.
There are many perspectives that should be followed by addressees, to seriousness of the addressee. It is also established through the study that the Prophet of Allah (Peace Be Upon Him) knows his friends accurately, so he answers them according to their situation.

Keywords: Rhetoric, Caller, Situation, Addressee, Model.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانًا، وأبلغهم كلامًا وأبينهم حجة وأقواهم إيمانًا، سيدنا محمد –ﷺ– النبي العربي الأمين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فغني عن البيان: أن السنة النبوية كانت وما تزال وستظل المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله –سبحانه وتعالى– ولا عجب في ذلك فهي له شارحة ولمجمله مفصلة بالإضافة إلى أنه –ﷺ– أوتي جوامع الكلم وخواتمه وفواتحه، واختصر له الكلام اختصارًا.

ومن هنا نشطت الأقلام وتسارعت الأفهام لتنال شرف الدراسة في البيان النبوي الشريف، فوقع اختياري على هذا العنوان " **من بلاغة الداعي الناجح مراعاة مقام المخاطبين الحديث الشريف أنموذجًا**" لعليّ أساهم في لبنة من لبنات هذا المؤتمر العلمي الدولي الخامس الذي ينظمه صرح من صروح جامعة الأزهر الشريف (كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية).

واخترت (الداعي): لأن الدعاة ورثة الأنبياء وبهم يصلح المجتمع ويفسد ولهم دور كبير في ذلك.

واخترت (المقام): لأن المقام هو الذي يحدد إجابة السائل ويصل به إلى الغرض المنشود من وراء سؤاله.

واخترت (الحديث النبوي): لأن رسولنا الكريم –ﷺ– أعلم الناس بأحوالهم فكان يجيب على كل سائل بما يناسب حاله، وفي ذلك تعليم وإرشاد للدعاة من أمته حتي يسيروا على نهجه ويسلكوا مسلكه حتى يصلوا بالمجتمعات إلى بر الأمان.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المقدمة: فيها أهمية الموضوع وخطته.

المبحث الأول: عناصر بلاغة الداعي.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية من الحديث النبوي الشريف.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وبعد: أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجنبنا الخطأ في القول عن نبيه -ﷺ- دون علم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ (١)

(١) سورة هود: ٨٨.

المبحث الأول

عناصر بلاغة الداعي

غني عن البيان أن الدعاة إلى الله – تبارك وتعالى– هم ورثة الأنبياء الذين اصطفاهم الله واختارهم من بين خلقه فقال عنهم **﴿وَمَن أَحسَنُ قَولا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلمُسلِمِينَ ﴾**(١) فهنيئا لمن سلك هذا الطريق وأخلص فيه النية لله – تبارك وتعالى– وتذكر قول نبينا – صلى الله عليه وسلم– : «**لأن يَهْدِيَ الله بك رجلًا وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**».(٢) ولكن في المقابل حتى تؤتي الدعوة ثمارها ويكتمل عودها وتبقى على أرض صلبة ويكون لها مردود حسن عند المخاطبين لابد للداعي أن يلتزم بالأجنحة التي يستطيع من خلالها أن يحلق في سماء الدعوة فيصل إلى قلوب المخاطبين. ومن هنا كان عنوان المبحث الأول: عناصر بلاغة الداعي، وهذه العناصر تتمثل في التالي:

العنصر الأول:

الإخلاص في الدعوة بأن تتخذ الدعوة إلى الله – تبارك وتعالى– رسالة وليست وظيفة، وهذا من بلاغة الداعي الناجح؛ لأن الداعي عندما يتخذ الدعوة إلى الله – تبارك وتعالى– رسالة سيفلح ويفوز بالخير الكثير والأجر الكبير الذي بشره به رسول الله – ﷺ– حيث قال: «**الدَّالُ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»(٣) فكم من أجور تكون في صحيفته يوم القيامة؛ لأن صحيفة الداعي لا تغلق ولا تطوى إلى يوم القيامة.

---

(١) سورة فصلت: ٣٣.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١١٦).

(٣) مسند أحمد ت/ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م. (٣٨/ ١٣٢).

العنصر الثاني:

أن يعرف الداعي أساسيات البلاغة التي تتمثل في علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع وعلم المعاني ينحصر في ثمانية أبواب وهي:

الباب الأول: أحوال الإسناد الخبري.

الباب الثاني: أحوال المسند.

الباب الثالث: أحوال المسند إليه.

الباب الرابع: أحوال متعلقات الفعل.

الباب الخامس: القصر.

الباب السادس: الإنشاء والخبر

الباب السابع: الفصل والوصل

الباب الثامن: الإيجاز والإطناب والمساواة

وعلم البيان ينحصر في ثلاثة أبواب وهي:

الباب الأول: التشبيه.

الباب الثاني: المجاز.

الباب الثالث: الكناية.

أما علم البديع فله ألوان كثيرة منها الطباق، المقابلة، المشاكلة، المبالغة، التورية، التوجيه، رد العجز على الصدر، الجناس، السجع، وغيرها كثير.

فمعرفة الداعي لهذه الأساسيات تساعده على الوصول إلى قلب المخاطب، متى يستخدم أدوات التوكيد ومتى يتركها؟ ومتى يطنب في الكلام ومتى يوجز؟ ومتى يستخدم المجاز ومتى يستخدم الحقيقة؟!

ومتى يستخدم الكناية؟ ومتى يأتي باللفظ الصريح؟ ومتى يستخدم التورية مع المخاطب إذا شعر بأن المقام يحتاج إلى ذلك حتى لا يعرض نفسه للكذب كل ذلك من عناصر بلاغة الداعي.

العنصر الثالث:

مراعاة حال المخاطب من حيث الصغر والكبر، العلم والجهل، الرجل والمرأة، الفقر والغنى البداوة والحضارة... وهذا أحد تعريفات البلاغة حيث عرفها بعض العلماء بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[١]، ولذلك من بلاغة الداعي أن يضع بين عينيه شيئين:

الشيء الأول: حال المخاطب والكلام الذي يناسبه.

الشيء الآخر: المقام؛ لأن لكل مقام مقالًا، فمقام الفرح غير مقام الحزن، ومقام الترغيب غير مقام الترهيب ومقام الرضا غير مقام الغضب، فلكل مقام منهما كلام يناسبه وألفاظ تعبر عنه وكلمات تؤدي غرضه، حتى أن المعاجم أسست لهذا العنصر حيث جاء في معجم المعاني الجامع اعتناء الكاتب أو الخطيب بحال من يقرأ أو يستمع له إن كان من الخاصة أو العامة بالإضافة إلى جودة اللفظ والموضوع وبدونه لا يُعد الكاتب أو الخطيب بليغا.[٢]

العنصر الرابع:

أن يعرف الداعي كيف يصل إلى قلب السامع وهذا أحد تعريفات البلاغة أيضًا: البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

فالداعي الناجح هو الذي يصل إلى قلب السامع من أي طريق يراه؛ لأن الدعوة فن من الفنون فينبغي على الداعي الوصول إلى قلب المخاطب حتى يستطيع التأثير فيه ولذلك نرى الإمام أبا هلال العسكري يعرف البلاغة بقوله "

(١) ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني، ج١، ت/ خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث،ط١٤١٣،٣هـ- ١٩٩٣م، ص٤١.

(٢) ينظر: معجم المعاني الجامع.

البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن".[١]

العنصر الخامس:

أن يكون كلام الداعي فصيحًا بليغًا خاليًا من عيوب فصاحة الكلمة والتي تتمثل في: تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وأن يكون خاليًا من عيوب فصاحة الكلام التي تتمثل في: تنافر الكلمات، وضعف التأليف، والتعقيد بنوعيه المعنوي واللفظي، وهذا عنصر مهم من عناصر بلاغة الداعي لأن العتابي يرى أن البليغ كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة ولا استعانة فهو بليغ فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق[٢] لأن الداعي حريص على إيصال الدعوة إلى الناس ومن أجل هذا يستعين بكل وسيلة مشروعة لتحقيق ما يحرص عليه ومن الوسائل المشروعة الكلمة الهادفة الفصيحة والجملة البليغة والعبارة المؤثرة وسلامة اللغة وحسن البيان وأفانين الكلام وطرائفه وتذوقه اللغوي وشعوره السليم المرهف بجمال اللغة وروعتها وكونه بصيرًا بمواقع الكلمة من الحسن والقبح والنعومة والخشونة والمتانة والركاكة والجزالة والفخامة والرفعة والصنعة، وفصاحة المتكلم هي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح إذا جادت لغته فلا يلحن ولا تشوب لسانه لكنة، والكلام لا يسمى فصيحًا إلا إذا جمع نعوت الجودة من وضوح المعنى وسهولة اللفظ وجودة السبك والبعد عن الاستكراه والتكلف واتصف مع ذلك بالفخامة وشدة الجزالة فإذا جمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمي بليغًا ولم يسمَ فصيحًا.

---

(١) كتاب الصناعتين ت على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩، ص ١٠.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ ، ج١، ص ١١٢.

العنصر السادس:

الإيجاز في الكلام على حسب حال المخاطب والإيجاز ليس له حد معين، فقد يكون الكلام سطرًا واحدًا ويعد ذلك إطنابًا وقد يكون الكلام صفحات متعددة ويعد ذلك إيجازًا، كالصلح بين العباد يحتاج إلى إطناب في الكلام من أجل تأليف القلوب وتقريب وجهات النظر، فالداعي لابد أن يفطن لذلك، وهناك مقامات تحتاج إلى إيجاز في الكلام، وكل ذلك بشرط ألا يخل الداعي بالمعنى المقصود وهذا ما أشار إليه الرماني عندما عرف الإيجاز فقال: " تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز، أي أن تكون قلة الألفاظ وافية بالمعنى المراد وموضحة له".(١)

وما أجمل قول ابن الأثير عندما وصف الإيجاز بقوله: الإيجاز نوع من الكلام الشريف البليغ لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانته وتعذر إمكانه، والنظر فيه إنما هو المعاني لا إلى الألفاظ ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ حتى تتعرى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أن مدار النظر في النوع إنما يختص بالمعاني، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورُبَّ لفظ كثير يدل على معنى قليل.(٢)

العنصر السابع:

الحكمة، لأن الحكمة من بلاغة الداعي والحكمة هي أحد تعريفات البلاغة؛ لأن الحكمة هي وضع الشيء موضعه اللائق به وهذا هو مفهوم قضية

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن خلف محمد ومحمد زغلول، الطبعة الثانية، ص ٦٢.
(٢) ينظر: المثل السائر لابن الأثير، ت/ أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة القاهرة ج ٢، ص ٦٨.

النظم التي اعتمد عليها الإمام عبد القاهر الجرجاني – طيب الله ثراه – اعتمادًا رئيسا في كتابه دلائل الإعجاز وقال عنها: وضع كل كلمة من النظم في مكانها المناسب.(١)

ومن حكمة الداعي أن يعرف متى يتكلم ومتى يسكت؟ ومتى يطنب ومتى يوجز؟ وكيف يراعي حال المخاطب ويعالجه علاجًا صحيحًا؟، وما أصدق قول ربنا – تبارك وتعالى–: ﴿ وَمَن يُؤتَ ٱلحِكمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيرا كَثِيرا ﴾(٢)

وقد استعملت العرب لفظ الحكمة للطبيب لأنه يعالج المرض– بإذن الله تعالى–، والداعي مثله مثل الطبيب لأن الطبيب يصف الدواء على حسب الداء كذلك الداعي يختار الفتوى التي تناسب حال المخاطب وتتناسب مع ظروفه، ومن رحمة الله بنا تتغير الفتوى باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، كل ذلك ينبغي أن يفطن إليه الداعي بحكمته؛ لأن مراعاة أحوال المدعو إلى الإسلام من الحكمة، أحواله المادية والنفسية والفكرية والاجتماعية حتى أحواله العارضة، فإن الحكمة مراعاة تلك الأحوال، وعدم مراعاتها ليس من الحكمة بل من الحماقة التي لا ينتج عنها سوى تنفير المدعو.

أضف إلى ذلك: أن القدرة من الداعي على استعمال الحجة والبرهان من الحكمة، فإن استعمال الدليل في غير موضعه ليس من الحكمة، كذلك اختيار أولويات الموضوعات من الحكمة واختيار الموضوع غير المناسب للمقام كذلك ليس من الحكمة كما أن دراسة علم الدعوة ومتطلباته من الحكمة في الدعوة.(٣)

(١) ينظر: دلائل الإعجاز– عبد القاهر الجرجاني– تحقيق/ شاكر مطبعة المدني– ط٣– ١٤١٣هـ ١٩٩٢م– ص ٨١.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٩

(٣) ينظر: مجلة النبأ، العدد ٣٦ السنة الخامسة، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

العنصر الثامن:

من بلاغة الداعي رصيده في المجتمع الذي يعيش فيه ونعني بذلك رصيده من الثقة والأمانة والعلم والخلق حتى يكون كلامه مصدقًا ويكون له واقع حسن في قلوب الناس وحتى يستطيع من خلال رصيده أن يصل إلى قلب السامع.

لأن بعض الدعاة يعتقد أنه يكفي لإقناع الآخرين بصحة دعوتهم أن تكون الحجة جلية واضحة وأن يكون البيان فصيحًا بليغا ولكنهم – مع حرصهم على إتقان ذلك– قد يُفاجؤون بعدم استجابة مدعويهم فيلقون التبعة من على أكتافهم ظانين أنهم أدوا ما عليهم ويتلفظون بقول الله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ** ﴾[1] ثم يحملون من كانوا محلا لدعوتهم المسؤولية كاملة لعدم استجابتهم للهدى ﴿ **بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ** ﴾[2] أو يسندون سبب إخفاقهم إلى محض المشيئة الإلهية ﴿ **وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ** ﴾[3] ولا شك أنه لا يخرج شيء عن المشيئة الإلهية وأن الذين لم يستجيبوا لوضوح الحجة وبلاغة البيان ليسوا بمنجى عن المحاسبة والسؤال، ولكن لا شك أيضًا أن هؤلاء الدعاة لم يلتفتوا إلى غاية الدعوة التي لا تقتصر فقط على إقامة الحجة لاستحقاق الجزاء، بل تهدف بالمقام الأول إلى إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وإنقاذهم من غضب الله وناره إلى رضاه وجنته، وهذا المعنى هو ما وصف به الله – سبحانه– رسوله– ﷺ– عندما قال: ﴿**لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ**

(١) سورة العنكبوت: ١٨ سورة النور: ٥٤

(٢) سورة الروم: ٢٩

(٣) سورة الأنعام: ٣٥

رَّحِيمٌ ﴾ [١] ولذلك فإن المدقق في عناصر بلاغة الداعي يخرج – ولابد– بأن قيام أمر الدعوة لا يقتصر على إيضاح حجة وبلاغة بيان فهما – بالرغم من أهميتهما– يشتركان جنبًا إلى جنب مع عناصر أخرى عديدة لإنجاح حجية البلاغ من قبل الداعي، ومن هذه العناصر ما يمكن أن نطلق عليه رصيد الداعي لدى المدعو، ليكون هذا الرصيد موطنا لاستجابة المدعو إذا أراد الله له الهداية أو أبلغ في استحقاق النقمة إذا انتكس وأبى إلا الغواية.[٢]

العنصر التاسع:

من بلاغة الداعي الموعظة الحسنة التي تؤثر في القلوب وتأخذ بالألباب وتسيطر على الوجدان وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿**ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴾ [٣] لأن الموعظة الحسنة عنصر هام من عناصر الدعوة الإسلامية وهي العلامة على مصداقية الداعية أو عدم مصداقيته وبعبارة أخرى هي العلامة الفاصلة بين الداعية إلى الله الذي لا غاية له سوى الله وبين الداعية إلى نفسه أو إلى شيء آخر غير الله –تبارك وتعالى– لذلك وصفها المولى سبحانه وتعالى– "الموعظة الحسنة".

لأن الداعية الإسلامي لا يريد من الناس جزاءً ولا شكورًا، بل كل ما يريده منهم هو عودتهم إلى الله وعبادتهم إياه، وكل ذلك من بلاغة الداعية الناجح، لأن الموعظة الحسنة هي القول البليغ اللين الهادئ المتضمن لتخويف وزجر مع عدم التصريح بالزجر والتخويف.[٤]

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) ينظر: مقال للشيخ خالد أبو الفتوح بعنوان " رصيد الداعية" ص ٤٠.

(٣) سورة النحل ١٢٥

(٤) ينظر: مجلة النبأ، العدد ٣٦ السنة الخامسة، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

العنصر العاشر:

من بلاغة الداعي أن تكون حجته قوية وواضحة لا شك فيها ولا لبس، وهذا هو تعريف المذهب الكلامي – وهو أحد فنون البديع– أن يأتي الأديب البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوة خصمه بحجة عقلية قوية.

ومن ألطف البراهين القاطعة التي تحمل في طياتها المذهب الكلامي – ويفيد منها الداعي– قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ (١) .

ومن شواهد المذهب الكلامي في قول الرسول – ﷺ – : «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ لَيْسَ لِعَرَبِي عَلَى عَجَمِي ف ، فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»(٢).

تضمن هذا القول الشريف أعظم البراهين والحجج التي يحتاج إليها الداعي في دعوته ليكون داعيا ناجحًا فقوله – ﷺ– :" وإن أباكم واحد" حجة على أن ربكم واحد حيث إنكم تسلمون بأنكم جميعا لأب واحد وهو آدم فلابد أن تسلموا أنه لا يمكن أن يكون الخالق لآدم أكثر من واحد لأن ذلك من البديهيات.

ثم إن هذه حجة ساطعة على دعوى عدم أفضلية جنس على جنس إلا بالتقوى حيث إنكم تسلمون بأن كل الناس لأب واحد، إذا فلا قربى لأحد منكم عند الخالق بجنس أو عنصر وإنما القربى لديه تكون بقدر طاعته سبحانه وتعالى.(٣)

---

(١) سورة يس: ٧٨ – ٧٩

(٢) مسند ابن المبارك (ص١٤٦).

(٣) ينظر: مجلة النبأ وكتاب البلاغة العربية " علم البديع".

وفي ختام هذا المبحث نستطيع أن نقول: إن هذه العناصر التي سبق ذكرها هي الأجنحة التي يحلق بها الداعي في بستان دعوته من أجل أن يقطف ثماره ويجني محصوله ويستحوذ على عقول مستمعيه ويصل إلى أعماق قلوبهم.

***

المبحث الثاني

دراسة تطبيقية لمراعاة حال المخاطب من الحديث النبوي الشريف

مما لا شك فيه أن الحديث النبوي الشريف –على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم– يأتي في المرتبة الثانية في البلاغة والفصاحة والبيان بعد القرآن الكريم؛ لأنه المصدر الثاني للتشريع.

ومن هذا المنطلق إذا أردنا أن نطبق دراسة تطبيقية على مراعاة حال المخاطب فلن نجد أفضل ولا أحسن ولا أجمل بعد القرآن الكريم من الحديث النبوي الشريف؛ لأنه ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ *إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ**﴾.(١)

أضف إلى ذلك: أن رسولنا – ﷺ – قد بلغ من الفصاحة والبلاغة مبلغا لم يبلغه أحد قبله ولا بعده لأن بلاغته – ﷺ – هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها وحسرت العقول دون غايتها، لم تضع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفصولة وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ " .(٢)

كما أن بلاغته – ﷺ – تعليم من الله وإلهام، وهي نتاج فطرة قوية وسامية حيث نشأ صاحبها –ﷺ– وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقا وأعذبها بيانًا

(١) سورة النجم: ٣ – ٤ .

(٢) إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، مكتبة مصر، ص ٣٢٠.

فكان مولده –ﷺ – في بني هاشم وأخواله من بني زهرة ورضاعه في سعد بن بكر ومنشؤه في قريش ومتزوجه في بني أسد مهاجرته إلى بني عمرو بن هاشم وهم الأوس والخزرج من الأنصار(١)

وهذا المبحث – إن شاء الله – يحاول الكشف عن جزء مهم من بلاغته – ﷺ– وهي مراعاة مقام المخاطب وذلك من خلال بعض الأحاديث.

الحديث الأول:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ...قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ».(٢)

هذا الهدي النبوي الشريف بين فيه رسولنا ﷺ– أسس الإسلام ودعائمه التي قام عليها وأعمدته التي ارتكز عليها.

ويظهر لنا جليًا من هذا الحديث بهذه الرواية أن رسولنا –ﷺ– راعى حال المخاطب وأنه من الداخلين في الإسلام الجدد ولذلك لم يشق عليه ولم يكلفه ما لا يطيق وكل ذلك يتجلى لنا في عناصر عديدة من الحديث الشريف:

العنصر الأول: قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» فجاءت ألفاظه موجزة هادفة بعيدة عن الإطالة والدخول في تفاصيل العبادة حتى بين له بأن الأمر سهل ويسير ولا يحتاج إلى جهد كبير.

العنصر الثاني: «وَتُقِيمَ الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ» قيد الصلاة بالمكتوبة وهي الصلوات الخمس فقط ولم يأمره بنوافل ولا أي شيء آخر من أنواع الصلاة؛ لأنه

(١) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٣٢٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية ط١، رقم ٩، ص ٧٤.

راعى حاله من باب التخفيف عليه حتى إذا تمكن الإسلام في قبله طالبه فيما بعد بالنوافل.

العنصر الثالث: «وَتُؤْدِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ» وهي زكاة المال الذي بلغ النصاب وحال عليه الحول ولم يؤمر بأي نوع آخر من أنواع الإنفاق.

العنصر الرابع: «وَتَصُومَ رَمَضَانَ» فبدأ الصيام بصيام رمضان فقط لأنه ركن من أركان الإسلام ولم يؤمر بصيام النوافل.

العنصر الخامس: أن هذه الرواية لم يذكر فيها رسول الله –ﷺ– الحج من باب التخفيف عليه أو لعل الحج لم يكن مفروضًا في ذلك الوقت، كل ذلك مراعاة لحال المخاطب والدليل على ذلك بأن هناك رواية أخرى للحديث لم يقيد فيها رسول الله –ﷺ– الصلاة بالمكتوبة ولم يقيد فيها الزكاة بالمفروضة وذكر فيها الركن الخامس وهو حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا فيقول رسول الله –ﷺ في هذه الرواية عندما سئل عن الإسلام: « **الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».[1]

الحديث الثاني:

جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقام إليه الناس ليوقفوه فنهى النبي – ﷺ– أصحابه عن إيقافه ثم بعد أن انتهى قال: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» ثم أمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فصبه عليه، قال الأعرابي بعد أن فهم: فقام إليَّ فلم يؤنب ولم يسب ولم يضرب.[2]

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ط١، رقم ٨ ص ٤٥.

(٢) رواه مسلم ت/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، برقم ١٩٨.

تأمل معي – أخي الكريم – بلاغة الرسول – ﷺ– مراعاة حال هذا الأعرابي الذي جاء من البادية ودخل المسجد وبال فيه، فقام صحابته الكرام ليوقفوه عن فعله –الذي هو في نظرهم– الشنيع الذي لم يألفوه من قبل ولكن رسولنا الكريم راعى بأن هذا الرجل جاء من البادية ولم يكن عنده علم بآداب المساجد وحرماتها ولذلك تركه يكمل بوله ولم يعنفه ولم يشق عليه ليؤلف قلبه وليبين له سماحة الإسلام في أسلوب هادئ رقيق « **إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**» ولقد قرر الأعرابي هذا الأسلوب الراقي والموعظة الحسنة البليغة فقال : " فقام إلي فلم يؤنب ولم يسب ولم يضرب".

وبذلك يتبين لنا أن رسولنا الكريم لما راعى حال المخاطب كان لكلامه الطيب وتوجيهه الرشيد أثر كبير في استجابة الأعرابي وفهمه لآداب المساجد فهمًا صحيحًا.

الحديث الثالث:

أن النبي – ﷺ – لما دخل خيبر غازيًا وكان أهلها من اليهود، قال لما رآهم : «الله أكبر، اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ».[1]

فرسولنا – ﷺ– في هذا الحديث راعى حال المخاطب وراعي ديانته فهؤلاء يهود ولذلك راعى في خطابه تعظيم الله –عز وجل– وتنزيهه والتأكيد على نبوته – ﷺ– وصدق رسالته وهذه المعاني يبرز خلافها لدى اليهود فهم ينسبون النقائص والقبائح إلى الله –عز وجل– كقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء... وغيرها تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، كما راعى – ﷺ– ما عليه اليهود من صفات الكذب والمكر والخداع التي صارت فيهم كالجبلة والديانة وجاء الخطاب مع اليهود يحمل معه قوة الحق وقوة الأسلوب؛ لأن اليهود أهل عناد واستكبار

(١) أخرجه البخاري، المطبعة الأميرية، ١٣١١هـ برقم ٦١٠.

ولذلك بدأهم بجملة التكبير المكررة بهذه الصيغة الموجزة التي تقدم فيها لفظ الجلالة (الله) لتشعر بكمال التنزيه لله سبحانه وتعالى وتأكيده.(١)

الحديث الرابع:

في خطابه للنصارى قال: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ رسول الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأريستين».(٢)

نلحظ فرقًا كبيرًا في خطابه -ﷺ- للنصارى في هذا الحديث وفي خطابه السابق لليهود، فنجده -ﷺ- في هذا الحديث راعى مقام المخاطب ودعا النصارى إلى العبودية وأكد لهم وحدانيته وألوهيته وعدم الإشراك به ويتجلى لنا أن خطابه -ﷺ- لهم فيه رقة لا تكون مع اليهود ولعل ذلك من منطلق قول الله -تعالى-: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ** ﴾(٣) وكذلك ظهر من لغة هذا الحديث الذي خاطب به -ﷺ- هرقل وقومه.(٤)

الحديث الخامس:

جَاءَ أَعْرَابِي يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَيَنْتِفُ شَعَرَهُ، وَيَقُولُ: مَا أَرَانِي إِلَّا قَدْ هَلَكْتُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟ قَالَ: أَصَبْتُ أَهْلِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟ قَالَ لَا قَالَ أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟» قَالَ: لَا، وَذَكَرَ

(١) ينظر مقال مجلة البيان بعنوان مراعاة مقتضى الحال، العدد ٢٨٢

(٢) أخرجه البخاري، المطبعة الأميرية، ١٣١١هـ، برقم ٢٩٤١ ، وأخرجه مسلم برقم ١٧٧٣

(٣) سورة المائدة: ٨٢

(٤) ينظر مقال في مجلة البيان بعنوان مراعاة مقتضى الحال العدد ٢٨٢

الْحَاجَةَ، قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزِنْبِيلٍ، وَهُوَ الْمِكْتَلُ، فِيهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا أَحْسَبُهُ تَمْرًا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ الرَّجُلُ؟ » قَالَ: « أَطْعِمْ هَذَا » قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَحَدٌ أَحْوَجُ مِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، قَالَ: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ ».(١)

في هذا الحديث مراعاة أحوال المخاطب لأن مراعاة أحوال المخاطبين من لوازم المتحدث الناجح فهذا أعرابي فقير الحال، محتاج إلى الإحسان، ارتكب مخالفة شرعية، وجاء يعترف بها أمام معلم البشرية، حتى إنه ليلطم وجهه وينتف شعره، ويقول: ما أراني إلا قد هلكت وحال الأعرابي هنا يدل على قدمه واستعظام ذنبه الذي صدر منه.

وقد سلك معه النبي – صلى الله عليه سلم– طريق مراعاة أحوال المخاطب (عتق رقبة – صيام شهرين متتابعين إطعام ستين مسكينا) حيث قام يعرض هذه الأمور الثلاثة على الأعرابي ومع كل واحدة يسأله: أتستطيع ، فيقول: لا فأتى أصحاب النبي بزنبيل من التمر ليتصدق به هذا الأعرابي ، فإذا بالأعرابي يفاجئ النبي–ﷺ– بالأمر فيخبره بأنه ليس في أهل المدينة من أفقر من بيته وتتجلى رأفة النبي –صلى الله عليه وسلم ورفقه به ولينه معه في ضحكة أولا من صنع الأعرابي، ثم في أمره له بإطعام أهله تكفيرًا عن وزره.

فمراعاة أحوال المخاطب الذي يحتاج إلى الرحمة والرفق واللين هنا بادية في الموقف بأسره، لقد كان من الممكن أن يعفيه النبي – ﷺ– من صيام شهرين متتابعين فليس في ذلك مشقة مالية، ولكن مثل هذا الفقير الذي يسعى لكسب لقمة العيش له ولأسرته قد لا يتحمل مشقة الصيام البدنية، فمن الحكمة والمطابقة

(١) مسند أحمد ت/ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م. (١٦/٤٠٥) رقم: ١٠٦٨٨

لمقتضى الحال والمقام ما فعله النبي الكريم ﷺ ولك أن تتصور وتقدر المردود النفسي لهذا الموقف عند الإعرابي.(١)

الحديث السادس:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: « مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا».(٢)

هذا الحديث الشريف يتناول أمرًا من الأمور الغيبية وهي رؤية المؤمنين لربهم – سبحانه وتعالى– يوم القيامة، ولذلك راعى فيه رسولنا الكريم حال المخاطبين فهم أهل بادية، وكانوا يتقلبون في صحرائها ليل نهار ولذلك أتى لهم بأمثلة واقعية من حياتهم اليومية التي يشاهدونها ليل نهار.

أضف إلى ذلك: أنه ربما استشعر فيهم الشك في رؤية الله –تبارك وتعالى– ولذلك تدرج معهم في الحوار بأسلوب مقنع هادئ بداية من سؤالهم « هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» " فأجاب على الفور "نَعَمْ" وقدم الإجابة الفورية قبل الدليل، لأن رؤية الله – سبحانه وتعالى من الأمور المسلم بها والتي لا شك فيها ولا جدال وجاءت صريحة في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ**﴾ (٣) وقوله – سبحانه: ﴿**لَهُم مَّا يَشَآءُونَ**

(١) ينظر: أثر المهارات اللغوية في تغيير قناعات المخاطبين محمد السيد البدوي والمرسي خليل وعلى خليفة، ص ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة رؤية الله، ط١، ص ١٧٥.

(٣) سورة يونس: ٢٦

فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾[1]. ثم أتى لهم بالدليل القاطع والحجة الدامغة والبرهان الساطع من واقع حياتهم «هل تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ» تأمل بلاغته -ﷺ- في إقناع المخاطبين ومراعاة أحوالهم فرؤية الشمس في وقت الظهيرة وليس هناك سحاب يعوق رؤيتها أمر يشعر به ويراه كل إنسان.

ولم يكتف -ﷺ بذلك بل أتى لهم بدليل آخر « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ ؟ هل أحد منكم يشك في رؤية القمر وهو في تمامه والسماء صافية والنجوم ساطعة فأجابه الصحابة الكرام على الفور «قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ» بصيغة الجمع "قَالُوا " وكأن الجميع بلا استثناء لا يستطيع أن ينكر رؤية الشمس وقت الظهيرة وكذلك رؤية القمر في ليلة البدر، ومن هنا كانت القلوب مهيأة والعقول مستعدة والنفوس متلهفة ومشتاقة إلى رؤية الله: «قَالَ: مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا» أي سوف ترون ربكم يوم القيامة كما ترون الشمس وقت الظهيرة والقمر في ليلة التمام، فتمكن المعنى في نفوسهم فضل تمكن ورسخ في أذهانهم إلى الأبد.

الحديث السابع:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي، أَنَّهُ سَأَلَ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ» .[2]

الحديث الثامن:

(١) سورة ق٣٥

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ت/ حسن عبدالمنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، برقم ٢٢٢٢.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَج مَبْرُورٌ».(١)

الحديث التاسع:

عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَيْهِ؟ قَالَ: أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ».(٢)

هذه الأحاديث الثلاثة يُسأل فيها رسول الله ﷺ- سؤالًا واضحًا ومحددًا " أي العمل "أفضل" إلا إنه ﷺ- أجاب على كل سائل بما يناسب حاله ومقامه، لأن الداعي مثل الطبيب يصف الدواء على حسب الداء، وهذا من بلاغة الداعية الناجح، فما بالكم وهذا سيد الدعاة وإمام البلغاء وقائد الفصحاء ومن رحمة الله – تبارك وتعالى- بالأمة المحمدية بأن جعل لنا قاعدة شرعية بعنوان " تغير الفتوى بحسب الزمان والمكان" وهذه قاعدة ينبغي على كل داعية أن ينتبه لها جيدًا ويراعي حال سائله لتأتي الإجابة في مكانها المناسب، ويفيد منها السائل؛ لأن ديننا الحنيف يجيز للمفتي في واقعة ما فيفتي فيها بالحكم الشرعي ثم ترد عين الواقعة السابقة لشخص آخر ويفتي بخلاف الفتوى الأولى لوجود العلة المغيرة للحكم الأول في الحالة الجديدة وهذا أمر كان ﷺ يدركه جيدا فقد جاء في السنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، **«أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْمُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمِ، فَرَخَّصَ لَهُ، وَأَتَاهُ آخَرُ، فَسَأَلَهُ، «فَنَهَاهُ»، فَإِذَا الَّذِي رَخَّصَ لَهُ شَيْخٌ، وَالَّذِي نَهَاهُ شَابٌّ».**(٣)

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٨٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٧٨٢.

(٣) رواه أبو داود ت/ محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، برقم ٢٣٨٧ وصححه الألباني.

ومن المسلم هنا أن نهي النبي -ﷺ- لشاب منوط بالمآل لأن الشاب الصائم قد لا يملك إربه عند مباشرة زوجه في أثناء الصوم فيؤدي ذلك إلى فساد الصوم وناسب في حالة المنع خلافًا للشيخ الذي الغالب فيه الانضباط.(١)

ولذلك تعرض علماؤنا الأوائل لاختلاف الأجوبة التي وردت عن النبي -ﷺ- مع اتفاق السؤال، وبينوا أن ذلك من بلاغته -ﷺ- لأنه كان يعالج كل موقف على حسب ما يصلح له، وذكروا في ذلك آراء كثيرة:

الرأي الأول: أن اختلاف الجواب سببه مقصد السائل فقد يكون ظاهر السؤال عن الأعمال عموما ويريد السائل نوعًا معينًا منها، فقد يريد أعمال التطوع فقط دون الأعمال القلبية، ونحو ذلك، فالسؤال في هذه الأحاديث يدخل تحت قاعدة العام المراد به الخاص.(٢)

الرأي الثاني: أن اختلاف الجواب نابع من اختلاف الحيثيات المنظور من خلالها إلى الأعمال، فالرسول ﷺ يعتبر في العمل جهة معينة يفضله من أجلها، فهو أفضل الأعمال من هذه الجهة والحيثية لا من جميع الجهات والحيثيات.(٣)

الرأي الثالث: أن اختلاف الجواب سببه اختلاف الأحوال أو الأشخاص أو الأوقات؛ فإنه قد يقال خير الأشياء كذا ولا يراد خير جميع الأشياء من جميع

(١) ينظر: مقال بعنوان بقاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان، لقمان عبد السلام.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن رجب الحنبلي، ت/ محمود شعبان وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م ج ٤ ص ٢١٤، وشرح صحيح البخاري ابن بطال، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد السعودية الرياض الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، ج ٥، ص٧.

(٣) ينظر: فتح الإله في شرح المشكاة، ابن حجر الهيثمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥، ج ٧، ص ٣٢٤.

الوجوه في جميع الأحوال ولجميع الأشخاص وفي جميع الأوقات بل في حال دون حال ولشخص دون آخر وفي وقت دون آخر.(١)

الحديث العاشر:

جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِل» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ» قَالَ: أَرَاهُ عِرْقُ نَزَعَهُ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ».(٢)

في الحديث السابق راعى رسول الله – ﷺ– حال المخاطب وأنه من أهل البادية الذين يعتزون بالإبل فاستخدم معه الصورة التمثيلية، وقد توفر للصورة هنا من الأساليب البلاغية ما ضمن تأثيرها وجذبها وذلك من خلال هذا الاستفهام الذي يحمل في طياته بشائر الإجابة " هل لك من إبل" ثم في ذلك الحوار الرائع الذي يسير على طريقة الاستدراج؛ حيث يتدرج بالأعرابي خطوة خطوة حتى يسلم ويقر ويخرج نفسه بالإجابة عن سؤال نفسه الاستنكاري التعجبي التعريضي " إن امرأتي ولدت غلامًا أسود" .

وتتجلى مهارة الخطاب في صرف ذهن الأعرابي عن سؤاله، بسؤال حقيقي يحمل في طياته صورة تمثيلية رائعة، فيه الإجابة الشافية لما تحير فيه الأعرابي" هل لك من إبل" فهدأت نفس الأعرابي بهذا التشبيه التمثيلي القياسي الذي أدى إلى الإجابة من أقرب طريق وأوجزه.

ونلحظ هنا أن التمثيل نابع من البيئة التي يعيش فيها الأعرابي ويفهم لغتها وقوانينها، فالإبل هي الوسيلة الأولى في الصحراء والبوادي وأهميتها معلومة عندهم،

---

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج النودي) يحي بن شرف ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، ج ٢، ص ٧٧ وبلاغة الرسول وجوابه عن أفضل الأعمال، د/ محمد السيد عبد الفتاح، ص ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) أخرجه البخاري المطبعة الأميرية، ١٣١١هـ، برقم ١٩٩٠.

كما نلحظ القياس التمثيلي لموضوع الحديث واستلال الإجابة، وأخيرًا نلحظ ربط طرفي الصورة وهو ما يسمى بالقبض على أطراف الصورة إذا خاتمة الحديث فيها عود على أوله(وهذا لعله نزعة عرق) فهذه العبارة فيها تجميع لخيوط المعنى المراد ومن ثم لم يسع الأعرابي إلا الاقتناع.[١]

***

(١) ينظر: أثر المهارات اللغوية في تغيير قناعات المخاطبين ص٢٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ومثله معه ﷺ.

فقد أسفرت هذه الدراسة عن نتائج كان أهمها:

أولًا- التأكيد على أن الداعي لابد أن يتسلح بعناصر الدعوة حتى يستطيع أن يخوض غمارها ويجني ثمارها.

ثانيًا- التأكيد على الداعي مراعاة حال المخاطب حتى يعطيه الإجابة الشافية.

ثالثًا- لابُدّ للداعي أن يتخذ الدعوة رسالة وليست وظيفة؛ لأن الدعوة عندما تتخذ رسالة سوف ينجح فيها الداعي ويبذل فيها أقصى جهده.

رابعًا- الداعي لكي يؤثر في المخاطبين لابد أن يعتمد في دعوته على الواقعية الملموسة.

خامسًا- هناك حيثيات كثيرة للمخاطبين ينبغي على الداعي أن يتنبه لها جيدًا ويفتي بما يناسب حيثية المخاطب.

سادسًا- لابُدّ للداعي أن يتدرج في الحوار مع المخاطب حتى يستل الإجابة من المخاطب نفسه وذلك أوقع في النفس.

سابعًا- ثبت من خلال الدراسة أن رسول الله - ﷺ-يعرف أصحابه معرفة دقيقة ولذلك كان يجيبهم على حسب أحوالهم وهذا من بلاغته -صلى الله عليه وسلم- وفطنته.

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

المراجع والمصادر:

(١) أثر المهارات اللغوية في تغيير قناعات المخاطبين، محمد السيد البدوي والمرسي خليل وعلى خليفة.

(٢) إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، مكتبة مصر.

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني، ت/ خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

(٤) بلاغة الرسول وجوابه عن أفضل الأعمال، د/ محمد السيد عبد الفتاح.

(٥) البيان والتبيين للجاحظ، مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٦) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن خلف محمد و محمد زغلول.

(٧) دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني- تحقيق/ شاكر، مطبعة المدني- ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٨) سنن أبي داود، ت/ محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت .

(٩) سنن النسائي، ت/ حسن عبدالمنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(١٠) شرح صحيح البخاري ابن بطال، تحقيق/ أبي تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد السعودية الرياض، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

(١١) صحيح البخاري، المطبعة الأميرية، ١٣١١هـ.

(١٢) صحيح مسلم، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.

(١٣) فتح الإله في شرح المشكاة، ابن حجر الهيثمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥.

(١٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن رجب الحنبلي، ت/ محمود شعبان وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

(١٥) كتاب الصناعتين ت/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩.

(١٦) المثل السائر لابن الأثير، ت/ أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة القاهرة.

(١٧) مسند أحمد، ت/ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١٨) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج النودي) يحي بن شرف ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

References :

(1) 'athar almaharat allughawiat fi taghyir qanaeat almukhatibina, muhamad alsayid albadawi walmursi khalil waealaa khalifa.
(2) 'iiejaz alquran alkarim walbalaghat alnabawiat limustafaa sadiq alraafieii, maktabat masr.
(3) al'iidah lilkhatib alqazwini, ta/ khafaji, almaktabat al'azhariat liltarathi, 1413hi- 1993m.
(4) blaghat alrasul wajawabuh ean 'afdal al'aemali, du/ muhamad alsayid eabd alfataah.
(5) alibayan waltabyin liljahiza, maktabat alhilali, birut, 1423hi.
(6) thalath rasayil fi 'iiejaz alquran khalf muhamad wamuhamad zighlul.
(7) dalayil al'iiejazi- eabd alqahir aljirjani- tahqiqu/ shakr, matbaeat almadni- 1413h 1992m.
(8) sinan 'abi dawud, t/ muhamad muhi aldiyn eabdalhamid, almaktabat aleasriatu, sayda bayrut .
(9) sunan alnasayiyi, ta/ hasan eabdalmuneim shalbi, muasasat alrisalati, bayrut, ta1, 1421h-2001m.
(10) sharah sahih albukharii abn batala, tahqiqu/ 'abi tamim yasir bin 'iibrahim maktabat alrushd alsueudiat alrayad, 1423h 2003m.
(11) sahih albukhari, almatbaeat al'amiriati, 1311h.
(12) sahih muslma, ta/ muhamad fuaad eabdalbaqi, dar 'iihya' alkutub alearabiati.
(13) fath al'iilah fi sharh almashkati, abn hajar alhaythami, tahqiqu: 'ahmad farid almazidi, dar alkutub aleilmiati, bayrut, 1436 hi - 2015.
(14) fath albari sharh sahih albukharii abn rajab alhanbali, ta/ mahmud shaeban wakhrun, maktabat alghuraba' al'athariati- almadinat alnabawiati, ta1, 1417hi- 1996m.
(15) ktab alsinaeatayn ti/ ealaa muhamad albijawi wamuhamad 'abu alfadl 'iibrahim, almaktabat aleasriati, bayrut,1419.
(16) almuthal alsaayir liabn al'athira, ti/ 'ahmad alhawfi wabadawi tabaanata, dar nahdat masir, alfajalat alqahirati.
(17) msanad 'ahmadu, ti/ shueayb al'arnawuwt waeadil murshid, muasasat alrisalati,ta1, 1421hi- 2001m.
(18) alminhaj sharh sahih muslim bin alhajaaj alnuwdii) yahi bin sharaf , dar 'iihya' alturath alearabia, bayrut, altabeat althaaniati, 1392hi.